جمال الجزيري: ارجموا ذلك الباسمَ، قصص قصيرة. دار حمارتك العرجا: ط1، أغسطس 2015

سلسلة قصص قصيرة (14)

ارجموا ذلك الباسمَ

13 قصة قصيرة

جمال الجزيري

حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني

طبعة أولى

أغسطس 2015

سلسلة قصص قصيرة (14)

سلسلة تصدر عن حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني

المؤلف: جمال الجزيري

العنوان: ارجموا ذلك الباسمَ: 13 قصة قصيرة

التصنيف: قصص قصيرة [فن السرد، أدب عربي معاصر]

الطبعة الأولى: أغسطس 2015

تصميم الغلاف: المبدع محمود الرجبي

تصميم الكتاب: د. جمال الجزيري

الناشر: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني

دار نشر إلكترونية مجانية لا تهدف للربح

للمراسلة لنشر أعمالكم في السلاسل المختلفة التي تصدرها حمارتك العرجا، الرجاء تقديم طلب على موقع الدار:

http://homartkelarja.wix.com/homartk

https://www.facebook.com/Hemartakalarja

/https://www.facebook.com/groups/Hemartak.Alarja

وإرسال الملف وفقا لشروط النشر على إيميل الدار باسم د. جمال الجزيري أو على إيميله الخاص:

elgezeery@gmail.com

hemartak@gmail.com

إشارة

كُتبت قصص هذه المجموعة في الفترة ما بين 1 مايو 2008 و11 يناير 2011

جهاز مسح الرأس

"كيف تنمِّي قدراتِكَ العقليَّةَ؟"، هذا هو السؤال الذي طرحوه علينا اليوم. وقف السائل ينتظر إجابة من أي أحد من الجماهير المحشودة في الميدان. أخذت شفتاي تأكلانني في تأنٍ. عندما لمح صديقي الكلمات الحارقة المصلوبة على شفتيّ، أمسك يدي بقوةٍ وعنفٍ وهو يبلِّل شفتيّ بزيت أو مرهم أحسستُه لَزِجًا. طلب مني أن أفكر في الألف جنيه التي دفعتُها بالأمس عندما أجبتُ على سؤال مماثل:

- كيف توظِّفُ الرمزَ في النَّصِّ الأدبي؟

عندما اندمجتُ في الإجابة بناء على خبرتي وقراءتي، سحبني مختصو الجهاز إلى صالة الحَجْرِ الرئيسية وأوقفوني أمام جهاز مَسْحِ الرَّأسِ.

لفّوا شريطا أَشْبَهَ بشريط جهاز قياس ضغط الدَّم حول رأسي، ثم أدخلوا بعض البيانات على الجهاز لم أتمكن من التقاط شيئا منها، إذ يبدو أن إدخال هذه البيانات صار روتينا بالنسبة لهم. تَوَرَّدَتْ خدودُهم عندما ظهرتْ نتيجةُ المسح

على الشاشة لتقول إن درجة حرارة ذكائي 39 درجة. سحبوا بطاقة الصرف الآلي من جيبي وأدخلوها في فتحة أخرى بنفس الجهاز ليسحبوا منها ألف جنيه. الغريب أنهم يعرفون دائما كلمة السر بالرغم من أنني أغيرها كثيرا.

ازداد تورُّدُ خدودهم عندما لم يجدوا في رصيدي ما يكفي. اقتادوني إلى قاعة المطبعة الرئيسية لأقضي، بما لم يتبقَّ من رصيدي، في الرقابة على أربعة كتب بمعدّل مائة جنيه للكتاب. وكان عليّ أن أملأ الكتب بالخطوط الحمراء، فإن لم يجدوا هذه الخطوط الحمراء تملأ كتابا سأكون مدينا بألف جنيه مقابل كل كتاب. وكانت صدمتي لا حد لها عندما وجدتُ الكتب عبارة عن كتاب لي وثلاثة كتب لأصدقائي. ولم أتمكن من أن أرسل رسائل بريد إلكتروني لأصدقائي من على جهاز الجامع الأكبر إذ أن كاميرات المراقبة كانت تعلن عن نفسها في استفزازٍ، ولو تم اكتشاف "فعلتي" سأكون مدينا بألف جنيه أخرى مقابل كل رسالة. كما أن محاولة

تشغيل الماسنجر فشلت فشلا ذريعا إذ ظهرت لي رسالة لعينة تقول:

- لست مديرا أو مسئولا ولا تملك صلاحيات التحدث أو الاتصال.

لم يكن أمامي إلا أن أنثر الخطوطَ الحمراءَ في كل مكان. تمهَّلْتُ قليلا. وسرعان ما طرأتْ على رأسي فكرةٌ حمراءُ، فأخذت أضع الخطوط الحمراء تحت العبارات العادية جدا التي لا يوجد بها أي رمز أو تلميح، فقط عبارات بلا رُتْبَةٍ رمزية تملأ الفراغات فيما بين الرموز، علّها تكون فضيحة مدوية لهم عندما ينشرون الكتب بدونها ويتركون العبارات الأخرى الأكثر خطورة حسب مقاييسهم.

ازداد ضغط صديقي عندما رأى لساني ينتفض في فمي ويهمّ أن يهبّ خارجا ليطلق حركته على رَسْلِهَا. فكّرتُ في رصيدي الذي نفد وفي الخطوط الحمراء وفي عبث استنفاد كل طاقتي في مسرحية لا تطهّرُني. والغريب أنها كانت ذات طابع كوميدي خالص.

أخذت أفكر في طريقة لأفرّغ بها شحنة الحركة التي تنفجر انفجارا ساكنا في لساني، فرفعت يدي في تلقائية مصطنعة:

- أشترك في النادي الرياضي التابع لوزارة الشباب أو أعمل بدأبٍ أمام جهاز الجامع الأكبر وأطهّر الكتب من الفيروسات.

صفّق لي السائل وفي الحال وصلت رسالة على هاتفي تقول لي إنه تمت إضافة ألفين جنيه إلى رصيدي. فنزلت دمعة على خدي سرعان ما مسحها صديقي كي لا تلتقطها الكاميرات الدوّارة المسلّطة علينا.

لكن رسالة أخرى وصلتني لتعكّر ما تبقى لديّ من صفو:

- لقد تم اختيارك لتمثيل نادي شباب الهيئة في دورة الألعاب العقلية، كما تم اختيارك رقيبا ثانيا بمبنى الجامع الأكبر.

فلم أتمالك ضحكة ساخرة ناوشتْ جسمي كله إلى أن قهرت كل مقاومتي وخرجت إلى أعتاب فمي. لكنني استعدتُ حِيَلِي بسرعة لم أعهدها في نفسي وقلبتُ السخرية إلى صفاء يوحي للسامع بالسعادة والانتشاء ولحقتها بهتافات النصر والفرح لتصلني رسائل متزايدة بعدد نبرات صوتي وتقلباتها تفيدني بزيادة رصيدي.

وبعد أن هدأت العيون المتطلعة وانزاحت عنّي لتعود إلى السائل، انسحبتُ في هدوء إلى ماكينة الصرف الآلي لأسحب كل ما وصل إلى حسابي من رصيد.

يونيو 2009

احتمالات الملك والكتابة

مَلَلْتُ ومَلَّ. لم يستطعْ المحقِّقُ إلا أن يحصلَ على الكلمات المطبوعة في ديواني، ولم أستطعْ أن أقلِّلَ غباءَه ليقرأ كلماتي بعيون غير عيون محاكم التفتيش التي تلقَّت بلاغا من أحدهم ضدي.

عندما بلغ به المللُ مداه، توقَّفَ قليلا وهو يَشْرُدُ في اتجاه بعيدا عنِّي، ثم استدار والتفتَ إليّ فجأة قائلا:

- دعنا نتسلى قليلا.

وأخرج عملة معدنية من جيبه، قائلا:

- مَلِكٌ أم كِتَابَةٍ؟.

وبما أنني استغربتُ موقفه، أخذتُ أفكِّرُ في سؤاله وما يقصده بهذا اللعب المفاجئ. تدبرتُ كلمات سؤاله، وشعرتُ بحيرة بالغة، إذ أنني أمام خيارين لا يقلُّ أحدُهما صعوبة عن الآخر: إن اخترتُ المَلِكَ خسرتُ قضيتي وخسرت نفسي أمام نفسي، وإن اخترت الكتابة خسرت قضية أخرى لكنني على الأقل سأكون صادقا مع نفسي. "ملكٌ أم كتابةٍ؟" استغربت

صيغة السؤال من جديد، فمن جهة هو "يرفع" الملك و"يجرُّ" الكتابة. نظرت إلى صورة السيد الرئيس خلفه في تمعُّنٍ، وهي صورة أُخذت له قديما في شبابه، ثم استجمعتُ جرأةً حاول أن يسرِّبها من أعضائي طوال كل هذه الساعات من التحقيق، ونظرتُ إليه دون أن أُخْفِضَ عينيّ وأجبرتُه حرجا أو ضيقا أو تأففا على أن يُخْفِضَ عينيه، ثم قلتُ له:

- كتابةٌ

محاولا أن "أرفع" الكتابة بالرغم من أن السياق ينصبها، وأنا لا أدري عن الرهان شيئا، لكن بما أنها لعبة عبثية سأحاول أن أحتمي بالتعقُّلِ كي لا يجرَّني العبثُ إلى طر يق مسدودة أو طريق ضياع.

ابتسم ابتسامة ماكرة عندما سمع إجابتي وكأنه ينذرني، ثم ما لبث أن أمسك بديواني، وألقى به في عرض الحائط، كأنه ينتقم مني، أو كأنه برميه هذا يرميني أنا في موجةِ سِحْرٍ أسودَ لا تنقطعُ.

- إذا تُصِرُّ على موقفك!!

قالها لي. لم أرد عليه، إذ أنني لا أعرف ما هو هذا الموقف أصلا، فكل ما فعلتُه هو أنني نشرتُ ديوانا من الشعر وعلى نفقتي الخاصة، بعد أن انتظرتْ كتبي الأخرى في الهيئات الحكومية سنوات لا أعرف عددها دون أن تشمَّ رائحةَ المطبعة.

وكالعادة، فَهِمَ سكوتي أو صمتي على أنه رضا وموافقةٌ على ما يدسُّه في سؤاله. سخرتُ في داخلي من هذا التأويل الجاهز من جانبه، فالصَّمْتُ لغةٌ لا تقل اكتمالا عن الكلام، وإن كانت أكثر إيحاء منه، فلا صمتي يعني موافقتي ولا كلامي يؤخذ دائما على ما تعنيه الكلمات المؤلَّفُ منها.

بعد أن يئس منِّي أو من أن ينتزع إجابة شافية وافية تُمَكِّنُهُ منِّي، تركني كأنني غير موجود وجلس على كرسيه، ثم وضع رأسه على المكتب، مغطيا وجهه بيديه بعد أن أغمض عينيه. سحب نفسا عميقا كأنه يحاول أن يُدخل هواءً يطردني من رئتيه.

رفع رأسه دون أن يلتفت إليّ، وأخرج العملة المعدنية من جيبه وأخذ يقلِّبُها في الهواء، وفي كل مرة كانت الكتابة تخرج له كأنها تغيظه أو تمكر به أو تتحالف على أعصابه، فيقذف بها بعيد ويلتفت إليّ.

الْتَفَتُّ إليه مبتسما، كأنني أستخدم ضده الخبث نفسه، وقلتُ له:

- لماذا لا تطبعون صورة السيد الرئيس على الوجه الآخر للعملة بدلا من الملك.

ابتسم، فيبدو أن الفكرة راقت له وأخذ يقلِّب هذا الاقتراح في رأسه علَّه يفوز بترقية، ثم باغتني قائلا:

- الملك على العملة من قديم الزمان، ألم تسمع عن اكتشاف العملات في المتحف المصري؟ كان الفراعنة يطبعون صورة الملك على العملات المعدنية، لذلك حفاظا على تاريخنا سأقترح طباعة صورة الملك على وجهٍ وصورة السيد الرئيس على

وجهٍ، وبذلك سأوفِّرُ عليك عدم الاختيار، فلن تختار كتابة تقذف بك في ظلام السجن أو المعتقل.

تمهَّلَ قليلا. عاودَ الجلوس على كرسيه. وضع يده على رأسه كأنه يغمض عينيه ليتغيَّر المنظر عندما يفتحهما.

عندما فتح عينيه، وضع يده في جيبه من جديد، وأخرج العملة المعدنية، وأخذ يلقيها في الهواء، محاولا أن تظهر صورة الملك. لكن الكتابة كانت تكيد له وتلحُّ على الظهور في كل مرة. وبالرغم من غيظه الشديد، أحسَّ بقدْرٍ من الارتياح، أو بأن لعبته أخرجته من حالته المزاجية السيئة التي تكيل السوء لي، ونظر إليّ بطرف عينيه، ثم رفعهما تدريجيا إلى أن سلَّطهما عليّ وباغتني بسؤال آخر:

- إذا كان عليك أن تنتمي إلى حزب، هل ستنتمي للحزب الحاكم أم للمعارضة؟

وبدون أن أجعله يستمتع بحيرتي، قلت له على الفور سأكون على الحياد أو عدم الانحياز. فقهقه ساخرا من عبارة عدم الانحياز، قائلا:

- إما مع أو ضد.

أحببت أن أغيظه مرة أخرى، فنظرت إليه مبتسما كأنني طفل يتخابث على الكبار قائلا:

- هذه الثنائيات عفا عليها الزمن، أَوْجُهُ الاحتمال لا حصر لها: إما أو أو أو ... إلى ما لا نهاية. فلتحيَ "الأَوْأَوَة".

انفجر غاضبا من لهجتي الساخرة، ونادى على الحارس أو شخص آخر لا أعرف لقبه، وأمره بأن يقتادني إلى محبسي، ممزقا أوراق الديوان أمامي. وبينما كنتُ أتظاهر بالخضوع، نظرتُ إليه، فرأيت نظرة انكسار في عينيه، وكأنه يندب حظَّه أو حظِّي، لكنني كنت سعيدا، على الأقل كنت منسجما مع نفسي.

انتظمتْ خطواتي وأنا في طريقي إلى محبسي، كأنني أجهز نفسي للقراءة أو الكتابة ونظرة الانكسار في عينيه لا تفارقني أبدا، كأنها نقطة نور أو علامة ترشدني على الطريق.

عندما رأى الابتسامة والبِشْرَ في عينيّ وعلى وجهي، نادى اسمي، فتوقَّفَ الحارس وتوقَّفْتُ، وأشار إليّ بالرجوع صارفا الحارس.

ظننتُه سَيُكْمِلُ قصة صورة الملك وصورة السيد الرئيس على وجهي العملة بما يقطع الطريق على انتشائي بخبثي ساعة اقتراحي. لكنني وجدته تحول إلى موقف المبتسم، كأننا صديقان لم نلتقِ منذ فترة طويلة. طلب مني الجلوس، فجلست في حذرٍ أو توجُّسٍ أو ريبةٍ وأنا أعدِّد احتمالات الأسباب وراء تصرفه.

لكنني وجدت سؤالا يندفع من فمي دون أن أستطيع التحكُّمَ فيه:

- ما الذي تريده مني الآن وقد مزَّقتَ ديواني ولا توجد نسخة واحدة في السوق بعد أن نفدت كلُّ نُسَخِهِ؟

ضحك عاليا من كُلِّ قلبه وكأنه شخصٌ غير الشخص الذي كان يفتِّشُ تحت جلدي في الساعات الماضية. استغربت

من ضحكاته المتواصلة، فلقد كنت أتوقع نوبة غضب، وها هو يفاجئني بالضحك.

- لا تقلق!

قالها لي وهو يحاول أن يطمئنني وكأننا في سياق آخر ومكان آخر. باغتتني الحيرة من محاولته أن يطمئنني بلا داعٍ، فلا مجال لها أصلا. أكمل كلامه ربما ليخلِّصَني من حيرتي ويتحكَّمَ بأعصابي بدلا من أن يَدَعَ لي فرصةً للابتسام أو للردِّ المتمالكِ الأعصاب:

- قلتُ لك لا تقلقْ على نُسخ كتابك، فلقد اشترينا النسخ كلها.

انتابني القلق كحقيقة مؤكدة تملأ كل مساحات الفراغ حولي ولا تدع لي مجالا لأفكار أخرى أو حتى للكلام.

قام من على كرسيه، وجلس على كرسي آخر أمام المكتب قبالتي، ثم فاجأني بطلب مباغت لم أعرف إن كان امتحانا أم حقيقيا:

- فلنتبادل الأدوارَ، اجلسْ أنت على المكتب، وأنا سأجلس مكانك، ولنتخيَّلْ كيف يدور الحوار أو ما الذي يمكنك أن تفعله.

أحسست بأنني في مسرحية عبثية لم أقرأها من قبل، فقلت في سِري:

- إنها فرصة كي أستعيد الكتابة على العملة أو على الأقل أشارك في كتابة هذه المسرحية العبثية، على أمل أن تتحول إلى مسرحية في الواقع أو على الأقل على المستوى النفسي.

عندما نهضتُ، لفتتْ انتباهي صورة السيد الرئيس من جديد، فتذكرت أن اليوم هو عيد النصر ومن المفترض أن يكون يوم أجازة. لست أدري إن كان التحقيق يدوم في الأجازات أم لا، لكنني أحسست بهاجس أن ذلك مجرد لعبة وقررت أن أكملها معه إلى آخرها حتى أكمل كتابة هذا المسرح الجديد أو على الأقل أمنحه فرصة لأن يُطْلِقَ الشاعرَ المحبوسَ بداخله. (6-8 أكتوبر 2009)

سأركب دماغي

كان قد طلب من سكرتير اللجنة الوهمي أن يتصل بي ليحدد لي موعدا لم أطلبه. ذهبتُ إليه من باب الفضولِ ومعرفةِ كيف تفكِّرُ هذه النوعيَّةُ من الْبَشَرِ. أعددْتُ أسلحتي وسننْتُ أطرافَ حِيَلِي وتهيَّأْتُ للقائه، مُخْبِرًا السكرتير بأنني على استعداد تامٍّ للقائه، بل وأرحب بهذا اللقاء. وسرعان ما عاود هذا السكرتير الاتصالَ بي قائلا إن الأستاذ فَرِحٌ جدا بأنني أَلَنْتُ رأسي وسِرْتُ نحو طريق اللقاء.

رفعتُ رأسي وأنا أدخل من باب الفندق وكأنني كل البراءة وكل اللامبالاة في آن. لم يستغرق الأمر طويلا حتى وصلت إليه. ابتسمتُ ابتسامة عريضة واحتضنته كأنه صديق قديم أو أنه أستاذٌ قديرٌ بالفعل يستحقُّ التقديرَ. ردَّ ابتسامتي بابتسامة أعرض منها كأنه لم يكن متجهما كالزعيم الفاشل في وجهي ساعة مناقشتي الهزلية في أبحاثي التي لم يقرأها، قائلا:

- كنتُ واثقا من أنك ذكي وأنك ستجيء إليَّ.

- (بتخابث لم أُظْهِرْهُ في نبرة كلامي) سامحني يا أستاذي على ركوب الدماغ.

- (بعد تمهُّلٍ) المهمُّ أنك عرفتَ خطأكَ، وسنطوي الصفحة السابقة كلها ونبدأ صفحة جديدة.

ابتسمتُ قائلا في سري: "يا لك من وقح! أتريد أن تطوي صفحة كتبتُها بدمي في أبحاثي التي تعمَّدتَ أن ترسبني فيها وتحتلها بصفحةٍ هزليةٍ لا أطيقُها ولا يمكن بأي حال أن أتصوَّر نفسي فيها؟".

لكنني وسَّعتُ ابتسامتي قائلا له وأنا أقلِّب في يدي الكأسَ الذي قدَّمه لي دون أن أتجرَّع منه جرعة واحدة:

- يا مرحبا بالبدايات، لقد كتبتُ في الدكتوراه فصلا كاملا عن البدايات وإمكاناتها الواعدة.

- (احتدَّ فجأة كأنني شتمتُه أو وجَّهتُ له إهانة لا تُغْتَفَرُ) دعك من الدكتوراه وكل ما لن يجديك شيئا. أنت الآن على أعتاب مرحلة جديدة ولن تفيدك الدكتوراه في شيء.

- (مُسايرا له في الكلام كأنني تقمَّصتُ صوتا ليس صوتي) أنا شخصيا أوشكت على الكفر بكل ما كتبتُه من رسائلَ وأبحاثٍ لا أحسُّ الآن بجدوى كتابتها.

تجرَّعَ جرعة من كأسه وقضم ورقة خسٍّ، ثم ركَّز عينيه على وجهي وهو يمد يده ويلعب بالإبهام والسبَّابة سويا كأنه يطلب مني مالا:

- لا يهم أن تكتب شيئا. سأتكلم معك بكل صراحة، المهم كم ستدفع.

- أدفع؟!

- نعم. أتحسب أن هناك أحدا فارغا ليقرأ أبحاثك الكثيرة الصفحات وحُجَجَكَ المرهِقة؟

- كنت أظن ذلك (راسما ملامح انكسار على وجهي).

- (أمسك بالكأس ورفعه أمام عينيه كمن يتأمله) إن بعض الظن إثم.

- ونِعْمَ بالله! (قلتُها على الفور).

فابتسم ابتسامة لم أستطع أن أحدد كل أبعادها. لكنني تركته يكمل كأسه إلى آخره وأنا ألوذ بصمتي متأملا. بادرته بالسؤال:

- وماذا عن الأبحاث التي سأترقى بها؟

وسَّع ابتسامته ومد لي يده ببعض الأوراق. تصفَّحْتُها ووجدت أنها عرض سريع لأفكار قديمة وعادية ومكررة. كل خمس أوراق تقريبا عن موضوع ما لا ترقى حتى أن تكون خطة بحث لموضوع. نصحني أن أنشر ما قال عنه أنه أربعة أبحاث وقال إنه سيساعدني في نشرها بمجلات الجامعات الرئيسية بالعاصمة، فهذه الأبحاث ستعود إليه هو شخصيا ليحكِّمها، كما أنه عرض عليَّ بأنه سيعفيني من تعبِ الذهاب بها إلى هذه المجلات وسيأخذها بنفسه إليها بعد أن يكتب عنها تقريره بصلاحية نشرها.

أخذتُ أنظر من آن لآخر حولي كأنني أريد أن أقنعه أنني أحاول أن أستكشف إن كانت هناك آذان بالقرب منا أم لا. عندما رآني ألتفتُ وسَّع ابتسامته وقال لي:

- لا تخفْ. كل من حولك مشغولون بكؤوسهم ولا يهمُّهم مَنْ هو حولهم.

فقلت له على الفور:

- خسارة.

- نعم!

قالها مستنكرا أو مندهشا كأنه لا يفهم معناها في هذا السياق، فكل الدلائل قبل ذلك كانت تشير إلى اتجاه آخر. فأكملتُ قبل أن يتلاشى اندهاشه:

- لكنك أثنيتَ على أسلوبي في الكتابة أثناء الماجستير والدكتوراه!

- (في تونر) كنتَ الولدَ الوحيدَ، ولم يكن لديك ما تقدمه لي. ثنائي عليك ضريبة المتعة.

لم أفهم كلامه، لكنه أكمله دون أن يترك لي فرصة للتساؤل أو التأويل:

- عليك الآن أن تدفع ضريبة مماثلة.

فقلت مندهشا:

- ضريبة مماثلة!
- نعم.
- كيف؟!
- هذا هو السؤال. سأقول لك كل شيء بالتفصيل.
- أتمنى أن أسمع هذه التفاصيل حتى تنشرح بصيرتي.
- ألا تعمل في الخليج؟
- بلى.
- ألا تكسب أموالا كثيرة؟
- على الأقل أحسن مما كنتُ عليه هنا.

- إذن عليك أن تدفع ضريبة كسبك الوفير كي تترقَّى. صاحب بالين كذَّاب.

- (التفتُّ إليه مستفسرا حقا) وما هما البالان؟

- (ردَّ عليَّ على الفور كأنه كان قد جهَّز إجاباته مُسبقا) أن تجمع ثروة وأن تترقَّى. إما هذه وإما تلك. وإن أردت أن تجمع بين الاثنين فلابد أن تضحِّي بجزء مما تكسبه هناك لتترقَّى هنا.

- (قلتُ متخابثا) وكم يجب عليَّ أن أدفع؟

- (قال على الفور كأنه كانت ينتظر سؤالي) لن أكون طمَّاعا. سأطلب فقط دَخْلَ سَنَةٍ من السنوات الخمس التي قضيتَها في الخليج حتى الآن. وما أطلبه قانوني تماما، فهنا تخصم منك الجامعة عشرين بالمائة من أي دَخْلٍ لك، وأنا طلبتُ الخُمْسَ. اعتبرْ نفسك مازلتَ تعمل هنا وأن العشرين بالمائة خُصِمَتْ منك. ولكن ضع في حسبانك أن ثمن الأبحاث خارج هذه الحسبة.

- (في هدوء شديد كأنني برئ كل البراءة) لكنني ليس معي كل هذا المبلغ، على الأقل الآن.

- سأسهِّل عليك الأمر تماما. أنا لا أهوى التعقيد. لا يهم أن تدفع نقدا. هناك مجوهرات، ذهب، أموال، سيارة، أي شيء. أنا لن أصعِّب عليك الأمر ولن أطلب كل هذا المبلغ نقدا.

- (مُتَفَنِّنًا في رَسْمِ ملامح براءتي جيدا) بارك الله لنا فيك. سأجمع كل شيء وأنسِّقُ معك على الموعد والمكان.

مددتُ يدي مبتسما بحرارة بذلت قصارى جهدي لأن تبدو حقيقية تماما. لكنني لم أشأ قبل أن أنصرف أن أجعله يهنأ بأحلامه التي صارت تراوده أو أن يبتسم على رَسْلِهِ ويشعر بالانتصار. لعبتُ بإصبعي في ذقني الحليقة وقلتُ له بكل هدوء:

- يا أستاذي!

فابتسم، لكنني هويت على ابتسامته بكل ما أملك من قوة قائلا:

- يا أستاذي، هل تعرف أنك أحقر إنسان قابلتُه في حياتي؟ سأستقيل من الجامعة وأتركها لأمثالك أيها الحقير.

وخرجت في هدوء تام مستمتعا بصدمتي له وانتصاري عليه.

16-28 فبراير 2010

تجديد الثقة

صرتُ في حيرة من أمره، ولم أعد أستطع أن أحسم شيئا، وكأن كل قدرتي على الثقة في الآخرين انهارت فجأة أمامي عندما رأيته يتصرف هكذا. فبمجرد أن تولَّي رئاسةَ نادي أعضاء هيئة التدريس وجدتُه يتحوَّلُ مائة وثمانين درجة. أول كلمة قالها:

- نحن لا نريد خروجا على اللياقة، فلا مناقشات سياسية ولا حوارات دينية ستجري في هذا النادي طوال تواجدي.

استغربتُ من كلمة "نحن" هذه، وكأن أعضاء هيئة التدريس انقسموا فجأة إلى مُعَسْكَرَينِ. وجدت بعض الأشخاص يلتفُّون حوله ويبتسمون ويباركون كلامه، كما أنني عجبت من مدى قدرته على التمثيل، فطوال الفترة الماضية كانت كل أقواله وتصرفاته تعكس صوت الأغلبية. كان يعبر عما نفكِّرُ فيه ونُحِسُّ به. لكنه ما إن صعد المنصة

حتى رأيناه رجلا آخر لا يمت بأية صلة لما نودُّ أن نفعله أو نأمل فيه. عاود الكلام قائلا:

- أنا لن أسمح بأي تجاوز، وكل الخطوط الحمراء التي سأضعها لا أريد أحدا أن يتخطاها.

لم أستطع أن أصمت، فلو صمتُّ الآن سأظلُّ صامتا إلى الأبد. فواجهته وألقيت عليه كلامي فجأة:

- من أنت حتى تستخدم كلمة "أنا" أو كلمة "نحن" التي تعزل بها الأعضاء عن بعضهم البعض؟

- أنا رئيس النادي.

- وهل معنى أنك رئيس النادي أن تتصرف هكذا فجأة؟

- يكفيني أنني الرئيس.

أدركتُ أن كل أسس الحوار المتمدن أو المتحضر أو الراقي لن تجدي شيئا مع هذا الذي أخذ يؤسِّسُ لفكرٍ جديدٍ سيهدم به كل ما قام عليه هذا النادي.

فكرت أن أرشقه بحذائي، لكنني تذكرت أنني لا أملك إلا إياه، ولذلك احتفظت به في قدميَّ. ونهضت من على الكرسي مبتسما كأنني سأبارك له فوزه بالرئاسة. وما إن وصلت إليه حتى نفخت سريعا في يديَّ وصفعته بكفي، وقبل أن يفوق من صدمته صفعته بالآخر مهددا إياه:

- إياك أن تتجاوز حدودُ مَنْصِبِكَ احترامَك لزملائك.

نهض فجأة وهدد بمعاقبتي ومطاردتي إلى أن أخرج من الجامعة بالمرَّةِ، واصفا إياي بالعميل والإخواني والعلماني، فضحكتُ لدرجة أنني لم أستطع أن أتمالك جسمي ووقعت على الأرض.

أمسك مكبِّر الصوت في يده وعدَّل وضع رابطة عنقه، ثم قال:

- دعونا نبدأ صفحة جديدة. لابد من الصلح والسلام.

فاستبشرتُ واستبشر زملائي، فهو بالتأكيد سيلتزم بشعار حملته الانتخابية:

- لا لهجرة العقول، لا لتجويع الأساتذة، نعم لنهضة مصر.

لكن استبشارنا لم يدم طويلا، فسرعان ما أكمل قائلا:

- أظن أنه من العيب أن نظل على مقاطعتنا للسيد الوزير. سنتصالح معه حتى نثبت للسيد الرئيس أننا متحضرون ويمكنه الاعتماد علينا.

حَمَتِ الألسنةُ وسبقتها الأيدي. أحسستُ بالبشرى عندما وجدت أيادي كثيرة تصفعه وتحمله لتلقي به في ماء النيل المطل عليه النادي.

16 مارس 2010

مفتاح

يسلمني المفاتيح في ثقة وتحدٍّ ودعوة للإقدام. أعبِّرُ عن دهشتي من أنه مفتاح وحيد. ينظر لي نظرة فيها قدر من الحياد والتصميم في آن، وكأنه يقول لي إنه يعرف ذلك.

يربت على كتفي مبتسمًا، وكأنه يدفعني بأصابعه لأن أخطو خطوة أولى. يضع تاجا على رأسي، وكأنه يرفع جلبابي عن الأرض قليلا. أحس برغبة في الهرش عندما يلامس المفتاح الخشبي بَشرة يدي. أتأمل المفتاح وتسترجع صفحةُ رأسي مَشاهدَ من بعض الأفلام القديمة: أبواب عتيقة، مغارات، قُطّاع طُرُقٍ. يشجِّعُني أو يستحثُّني بكلمات:

- أنت لها. مَن غيرك جدير بهذي المفاتيح؟

أجد لكلماته وقعا حميما على أذني بالرغم من أن قدميّ تترددان في الخطو نحو الباب. فأتناسى الهرش للحظات، ثم أغمض عينيَّ وكأنني أودِّع كل حياتي وأتركها معلّقة على مشجب سأضعه أمام جانب الباب. أحسُّ بتزايد شدة دفعه على كتفي وكأنه يود أن يلقي بي مرة واحدة خلف هذا الباب.

هل كان غارا ما شاهدته في ذلك الفيلم القديم؟ أم أنه تابوت له باب مُغْرٍ؟ أم أنه يُحْسِسُني بسكون الموت وحُرْمَتِهِ؟ أم أنه مَنْزِلٌ تتناسخ فيه الأرواحُ، فلا تترك فيه روحٌ أولى لروحٍ تالية أي فرصة للانطلاق أو الاختلاف؟

عندما أضع المفتاح في الباب، أسمع صريرا عجوزا، وكأن هذا المفتاح نَقْرٌ على غرفة أَدْمَنَ ساكنُها النومَ في عزِّ النهار. يخطر على أذني فجأة صوتُ ورشة إصلاح السيارات القديمة وهو ينخر في محاولات نومي في الغرفة التي استأجرتها في "بين السرايات[1]" قديما.

ما أن أدفع الباب بقدمي حتى تنهال عليّ روائحُ عطنة، كأنني فتحتُ باب مقبرة فرعونية لم يدخلها الهواء منذ آلاف السنين. أُهمُّ بالرجوع، لكنني أجد الباب موصدا خلفي. أضع فيه المفتاح الذي سلمني إياه من كان يحثني بالخارج ولم يدخل معي. أجده لا يستطيع أن يفتحه.

- أهلا!!

---

[1] حي شعبي أمام جامعة القاهرة بالجيزة بمصر.

أقولها وأنا أستشعر خيانة أو عجزا أو مواجهة غير متكافئة. يبدو أنني تركت كل أسلحتي وحِيَلِي بالخارج أو أن هذا المكان لا يستوعبها.

أتذكر المِشْجَبَ بجانب الباب بالخارج والأفلامَ القديمة. لا أعرف لماذا تخطر برأسي القدسُ العتيقة والفئران الجبلية والمطاريد غرب الجبل. تلحّ على مُخَيِّلَةِ عينيّ بلادُ الظلام التي كان يحدثني عنها جدي ومشاهد من قصَّتي "انظر خلفك في صخب[2]". وأراني واقفا لا أفقه فعلا. يعاودني الشك في حيثيَّات دخولي إلى هنا. لكن رجلا أشعث الشعر يحمل سيفا قديما وأوراقا صفراء كان يستحثُّني على الدخول أمام الباب.

أتذكر قدميَّ اللتين كانتا تتردَّدان في الدخول. أتذكر المشجب من جديد وأتذكر الباب الموصد من الداخل الذي لا يستطيع المفتاح أن يحرك له ساكنا. تتعالى في أذنيّ أصواتُ هتافاتِ بعض المرشَّحين في الانتخابات وتقترن بالأصوات

---

[2] نُشرتْ في مجموعة "غلق المعابر" عن دار التلاقي بالقاهرة، 2010. يمكنك قراءة المجموعة بعد تحميلها من هنا: http://www.4shared.com/office/SQGYFxCH/_____.html

بعض المشاهد التي سربتها وكالات الأنباء الغربية عن صور التعذيب في "مُعْتَقَلِ جوانتانمو".

يلعب على أعصابي ذلك الظلام الدامس المنتشر في كل مكان، إلا من بعض الأنوار الخافتة هنا أو هناك، أنوارٌ لا تزيدني إلا إحساسا بالمصابيح المنكسرة في كل الأرجاء، وكأن أيادي عابثةً قذفتْها بحجارة من سجِّيلٍ جعلتْها شاهدة على الغياب دون أن تستطيع أن تمحو آثارها، فمازالت الأسلاك متدلية ومازالت بقايا المصابيح في مواضعها.

- لا بأس.

أقولها بعد أن أُقْنِعَ نفسي بأن الباب الوحيد الذي يوصلني للخارج قد سُدّ في ظهري للأبد، وعليّ أن أتقدَّمَ لأستكشفَ بقايا حياةٍ تصلح لأن أسكن بها وسط هذه الدار. كلمات لا أذكر قائلها تعاود الوميض على صفحة رأسي:

- نظريات المؤامرة كامنة في "الدي ان ايه" الثقافي للمسلمين.

لا أدري ما علاقتها أساسا، ولماذا تَهبطُ عليّ الآن دون سابق إنذار كأنها زائرُ فجرٍ وقحٌ لا يراعي خصوصية أو سَكِينَةٍ؟! أحاول أن أتوخَّى الحذر وأنا أخطو بقدميّ اللتين لا أراهما جيدا وسط الظلام. يُفْزِعُني إحساسٌ بأن عينيّ بدأتا تتأقلمان تدريجيا على هذا الظلام. أسمع أصوات حشرات هنا وهناك. أحاول أن أعوّد رئتي على هذا الهواء القديم كي لا أموت اختناقا، وأن أُخْرِجَ من ذاكرتها الهواءَ البريَّ الذي كان بالخارج قبل أن أدخل إلى هنا، فعلى الأقل تَذَكُّرُهُ الآن سيزيد من إحساسي بأنني استجبتُ بغباءٍ لإغواء ذلك الرجل، وأنني تنازلتُ له بسهولة لا تقل عن تنازل "الزعماء" عن مطالب أهلهم.

أحسُّ بشيء رخو يلتف حول رجلي بسرعة غريبة. أستجمع كل ما في ذاكرتي من جروح وانقضاض، وأنفُضُ ذلك الشيءَ من على رجلي بسرعة الثانية الضوئية. تظهر أمام عيني من خلف ذاكرتي صورةُ الحمار الذي يرى ثعبانا يحاول أن يلتفَّ حول قدمه فيرفعَ قدمه بأقصى سرعة

وينزلها مرة ومرات على رأس الثعبان إلى أن يصير مجرد خيط أو حبل ملقً على الأرض لا يمثِّل أي تهديد لأحدٍ. وربما كان حصانا.

كلما أتوغل يتباعد النور، وكأنه أمنية لا لها أن تتحقق أو كأنه رغبة مراوِغة تتعمَّدُ إذلالي دون جدوى. لكن بعض بقايا هذا النور تنسكب على الأبواب في نهاية الساحة أو الردهة، فأنا لا أستطيع أن أميِّز معالم هذا المكان، وبالتالي لا أستطيع أن أرسم في رأسي خريطة ذهنية واضحة له – تنسكب بقايا النور كأنها علامة تقول لي شيئا، تريد أن تدفعني نحو هذه الأبواب لأفتحها أو حتى أزيلها.

أحمد الله أن المفتاح الذي بيدي يفتح إحداها. لكنني لا أدري ما الذي يكمن خلف كل هذي الأبواب ولا أيا منها أختاره. ينذرني إحساسٌ بأن النور الذي يدفعني لفتحها ربما كان سلاحَ الحيَّةِ زوجة الثعبان وتريد أن تستفرد بي لتنفث سمَّها في دمي على مهلٍ، وكأنها تُقِيمُ حفلةَ شرابٍ لامرأة

وحيدة تجلس على مائدة وحيدة في ذكرى وفاة لا يشاطرها فيها أحدٌ شيئا.

أنتقلُ إلى باب آخر. أضع فيه المفتاح، ولدهشتي ينفتح هذا الباب أيضا. أكرر نفس الحركة مع كل الأبواب. أجد هذا المفتاح الخشبي يفتحها جميعا ماعدا الباب الرئيسي الذي يمكنه أن يخرجني من هنا. تستوقفني الاختلافات البادية بين كل باب وآخر، وكأن هذا المفتاح هو المفتاح الجامع أو صمام أمان أو لا شيء على الإطلاق. ما يستطيع أن يفتح الجميع ليس مفتاحا أبدا.

باب وحيد هو الذي تبدو من فتحة مفتاحه آثارُ نورٍ بعيدٍ. وبالرغم من أن المفتاح يفتح الباب، عندما أدفعُ البابَ بيدي أحسُّ بتكتُّلٍ وراءه أو أنه يعاند حركة يدي. لا يمكن أن تكون زوجة الثعبان. لو كانت هي لكانت تركت الباب ينفتح بسرعة كي توقعني أرضا من أول خطوة. أُحِسُّ بلذَّةٍ في الضغط على الباب وفي محاولتي للتَّغَلُّبِ على مقاومته. لماذا يقاومني أصلا؟ أهي رغبة منه في الحفاظ علي شيء ثمين

بالنسبة له؟ تعاودني صورة التابوت. وأجدُني أأخذُ موضوعَ إزعاج حُرْمَتِهِ ببساطة.

يبدو أن حياتي وسط الصخب البري بالخارج لن تصير ممكنة بعد الآن. ومادام الأمر كذلك، ستكون حياتي على الدوام وسط هذه الأبواب وما يكمن خلفها. هل ستصير هي جزءًا مني أم سأصير أنا جزءًا منها؟ سؤال لا أستطيع الإجابة عليه مطلقا الآن. أنا هنا ولا يوجد احتمال بإمكان وجودي في مكان آخر الآن. كما أن هذه الأبواب تنبش حُرْمَتِي.

أدفع الباب بكل قوتي. أجده ينفتح. لكن أصوات الانكسارات تُوقِفُ قدميّ. أكتشف في نفسي خُبْثًا وساديَّة لم ألاحظهما من قبل. أبتسم بتلقائية وكأنني اكتشفتُ سرَّ سعادةٍ كان خفيًّا بالنسبة لي.

أجرّب نفس الطريقة مع كل الأبواب. وبالرغم من أنني أسمع أصوات ثعابين لا حصر لها، وكأنها تمارس "اعتقالا وقائيا" إذ أن صورة "باراك أوباما" تتضخم فجأة أمام عيني،

تخمدُ أصواتُ الثعابين فجأة عندما تنفجر أصوات الانكسارات. أبتسم وأزيح فكرة زوجة الثعبان إلى قاع رأسي. حتى لو استفردتْ بي، فسعادتي تمدُّني بقوى أكتشفُ عنفوانَها تدريجيا مع كل صوت انكسارات يصدر من خلف الباب الذي أفتحه. سأكون أقوى منها بالتأكيد. على الأقل سنكون متكافئين.

تعاودني صورة الرجل الذي كان معي بالخارج، وتزداد أصوات هتافات المرشحين للانتخابات. أبتسمُ في سخرية وانتشاء. أحسُّ بأن المفتاح أو مفتاحا شبيها به يفتحني أنا ويدلُّني على ما لم أكن أعرفه عني: قواي الخبيئة ومقاومتي وسعادتي التي بدأتُ أَفُكُّ خطَّها.

تتعثر قدمي بشيء ربما كان صندوقا أو كرتونا. أتحسَّسُه بيدي في حذر. ألمسُ مصابيحَ كثيرة. أظن أنهم كانوا يخططون لمشروع ترميم أو إنارة؛ لكنهم نسوا أن يكملوه، وربما كان كل ذلك مجرد دعاية. تزداد سعادتي بهذا الاكتشاف. بالتأكيد يمكنني الآن أن أبدأ في تركيب المصابيح.

وساعتها قد أرى أو أكتشف أشياء تسرّني. أرى رواد الفضاء الذي تمكنوا من إصلاح سفينة "هابل" وأراني مرتديا ملابس رائد فضاء يسير بثقة في أرجاء الدار ليصلح المصابيح. وأجد مشكلتي الوحيدة أنني لا أستطيع أن أخرج خارج هذه الدار لأثبّت المصابيح بالخارج.

أكتفي بما اكتشفته اليوم وأفكر في النوم والراحة حتى أستطيع بالغد أن أواصل اكتشافاتي ومشاريعي التي بدأت صورتُها تتَّضِحُ. أزيح أشياءً من على الصندوق، ربما كانت فضلات أو بقايا وليمة لم تكتمل. أجلس عليه وأتكئ على الجدار. تصل أصواتُ الثعابين إلى أذنيّ من كل الجهات. ينتابني الخوف. أجد أصواتها تزداد قوة. أسترجع اكتشافاتي وأصواتها التي خمدت عندما تكسّرت أشياء خلف الأبواب. أجد الأصوات حولي بدأت تخفت. سرٌّ آخر. لابد أن أستثمره. أضخّم مشهد الانكسارات في رأسي وأنا أسترجعه. تتحول أصوات الثعابين إلى خفوتٍ لا أكاد أسمعه، فأغمض عيني وأنا أثبِّتهما على هذا المشهد الضخم.

أصحو على صوت مكبّر صوت يأتي من الخارج:

- هناك الكثير من الخوف، هناك الكثير من الشك. لكننا إذا اخترنا أن يقيدنا الماضي، لن نتحرك أبدا للأمام"[3].

أستغرب وصول الصوت أصلا، فطوال وجودي هنا بالداخل لم أسمع أي صوت من الخارج ولم تصلني حتى نسمة هواء برية تجدد هذا الهواء العطن المخزون. أحاول أن أتذكر شيئا من الماضي الذي يتحدث عنه ذلك الصوت. لا تصل ذاكرتي إلا إلى الرجل الذي كان ورائي بالخارج وسيفه الصدئ وابتسامته البلهاء. لكن قدميّ تسري فيهما نغزة مفاجئة وكأنهما ينبهاني لشيء ما. أتذكَّرُ إحساس زوجتي بآلام الدورة الشهرية في موعدها بالرغم من أنها كانت حُبْلى. وسرعان ما أتذكر رفضَ قدميَّ الدخول وأنهما نبّهاني إلى وجوب التردد قبل اتخاذ القرار، وجوب التوقف

[3] من خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما بجامعة القاهرة 2009.

قليلا كي لا أتخذ قرارا ليس في صالحهما، هكذا فسّرتُ إشارتهما بعدما ربطتُ بين الصوت وحركتهما.

أتذكر مشجبا بالخارج، لكنني لا أستطيع أن أتذكر إن كنت أنا الذي نصبتُه هناك أم أنه كان منصوبا من قبل. يخرجني من تذكري ملمس الصندوق تحتي عندما أحس بحركة واهنة تدب فيه. أرفع غطاءه في حذر، فربما كان ثعبانا يرقد فيه في انتظار اللحظة المواتية للانقضاض عليّ. ألمسُ بعض المصابيح تتحرك. أنهض لأتحسس أي شيء أقف فوقه حتى أستطيع الوصول إلى المصابيح المكسورة وسط هذا الغبش الذي تبدو فيه كل الأشياء أطيافَ أشباحٍ لا يرتاح لها صدري. لكن ذاكرتي تعيد لي إحساسي بالسعادة والنشوة قبل أن أنام.

أجد بعض الكراتين، وعندما أتحسس ما بها أتبيَّنُ أنها كتبٌ مرصوصة كأنها خرجت من المطبعة مباشرة إلى هنا. أزحزحُ واحدة وأقف فوقها. أمسك بقايا مصباح قديم بحذر

حتى أتمكن من إخراجها من "دويل" النور. أضع مصباحا جديدا مكانه. لا ينبعث أي نور.

- لا بأس. لابد أن أسلاكا أخرى مازالت تسري فيها بقايا تيار كهربائي

أقولها لنفسي. أعكف على محاولة الإحلال والتبديل. في كل مرة أطرد إحساسا باليأس يدس سمّه في عروقي لكي أَكُفَّ عن المحاولة. أبتسم لصدق مقاومتي عندما يتدفق نور من مصباح. أكتفي بإحساسي بالانتصار وأتوقف عن مواصلة إحلال المصابيح، فلا أريد أن تعكّر عليّ أسلاكٌ لا تُحِسُّ بتدفُّقِ التيّار في أوصالها.

أنزلُ من على الكرتونة وأبدأ في تفحّص ما بها من كتب. تراودني ابتسامة لا أعرف إن كانت خبيثة أم صافية عندما أجد كل الكتب عبارة عن سِيَرٍ عربية قديمة: عنترة بن شدّاد، الأميرة ذات الهمّة، الظاهر بيبرس، السيرة الهلالية، سيف بن ذي يزن، فارس العرب، الأمير المنتقم... أفاجأ

بوجود بعض الكتب عن الهجاء وسط كل هذه السِّيَرِ. أبتسم لاكتشافي:

- عندما وقفت على هذه الكتب لم أستطع إلا أن أنير مصباحا واحدا.

ربما كان خوفا ذلك الذي يدفعني لأن أؤكد:

- لكنني أَنَرْتُ مصباحا على أية حال.

أنتقل إلى كرتونة أخرى. بعض الكتب عن الجنس والتسامح والحوار بين الأديان. لكنها مازالت في شكل مخطوطات. عليها هوامش كثيرة بخطوط عديدة. وأجد وسطها قصة شمشون الجبّار.

- أهلا بك!

أقولها له وأنا أستحضر قوته الهائلة وضعفه الإنساني في قصيدة قرأتها لشاعرة اسكتلندية[4].

---

[4] قصيدة دليلة للشاعرة كارول آن دفي. وها هي ترجمتي الكاملة لها:

دليلة

قال لي[4]

وكنا نرقد على السرير:

علميني كيف أهتمَّ.

أخذتُ أعض جيبَ أذنه في دلال،

وسألته:

ماذا تقصد؟

اشرحْ لي معنى كلامك.

وقف ومدَّ يديه نحو بيرته:

يمكنني أن أنزع الزئير من حلق النمر

أو أتمضمض بالنار

أو أبيت ليلة بأكملها في عرين المِينُوطُور[4]

أو أسلخ الفراء الصارخ ألما من دُبٍّ،

وأتحدَّى الجميع في ذلك.

ليس هناك شيء أخشاه في هذا العالم.

ضعي يدَكِ هنا،

(وأمسك بأصابعي إلى أن لمستْ النُّدبةَ على قلبه،

كان جرحا بحجم أربع ميداليات أصابه في الحرب)

لكنني لا أستطيع أن أكون لطيفا أو عاشقا أو رقيقا.

لابد أن أكون قويا.

ما العلاج؟

اقتحمني من جديد

اقتحمني إلى أن احمرَّ،

ثم اغتسلنا تحت الدُّشِّ سويا.

وبعدها رقد ورأسه على حِجري

لساعة آخذة في الظلام؛

صار صوته مختلفا

صار طنينا رقيقا كان بإمكاني أن أسمعه متعاقبا.

أنتقل إلى كرتونة ثالثة. يطالعني كتاب عن الاختلافات بين الأديان وكتاب آخر عن أمجاد العرب والحضارة الإسلامية التي أنارت العالم. ألتفت إلى المصابيح المكسورة فوقي. أمسكُ الكتابَ. يعاودني الإحساس بالجوع قويا شرسًا. أبدأ في القراءة علّها تحميني من هجوم الجوع حتى ولو مؤقتا، فلا يوجد أي شيء حولي صالح للأكل. أستغرقُ في القراءة بالرغم من وجود الكثير من الألفاظ المهجورة التي أتذكر إحساسا بمعناها من خلال قراءاتي السابقة للكتب

نعم، كنتُ متأكدةً من أنه كان يريد أن يتغيَّر،
كان يريد أن يتغيَّر محاربي الشجاع.
كنتُ هناك.
لذا عندما أحسستُ به يلين وينام
عندما بدأ في الشخير كعادته
تركته ينسل وينزلق وينبطح على الأرض
وهو في كامل الوسامة والضخامة.
وقبل أن أُحْضِرَ مقصِّي وأسنَّه
مجرِّبةً إياه بقصات سريعة قصيرة في الهواء الأسود التوراتي
ثبَّتُّ الجنزيرَ بالباب.
هذه هي الطريقة والسبب والمكان.
ثم بيدين متأنِّيتَيْنِ متحمِّستين
قصصتُ كلَّ خصلة من شعره.

القديمة أو للقصائد الموزونة "الحديثة!" التي تُحسِسُكَ بأنك تعيش في زمن ولَّى لا يمتُّ لك بصلة وتتكلم بلسان غير لسانك، ولا أعرف شيئا عن معنى بعضها الآخر. يبتعد عني الإحساس بالجوع بالرغم من أني أدرك فراغ بطني.

أحس بملل من القراءة. لكن عندما تعاود أصوات الثعابين حضورها بشراسة، أُمْسِكُ "الكتاب بقوة"، أتذكر ابني "يحيى" الرضيعَ وأواصل القراءة في نهم متعمّد.

لا أحسُّ كَمْ من الوقت مضى إلا عندما أرى المصباح ينطفئ فجأة. وبالرغم من أنني كنت أحس بضعف النور التدريجي أثناء القراءة، لم أشأ أن أكُفَّ كي لا يتزايدَ صوتُ الثعابين. أعود إلى موضع صندوق المصابيح وأمسك بأحدها. وعندما أثبّته في موضع المصباح الذي استنفد قدرته على الإضاءة أجده لا ينير، وكأن أحدا قطع التيّارَ عن هذه الدار بأكملها، أو أن المصباح تَلِفَ بالتَّقَادُم. يعاودني الإحساس بالجوع. ويباغتني حنين للخارج. أستعيد ذاكرة حركتي إلى أن أصل إلى الكرتونة التي بها قصة شمشون

الجبّار. وبما أنني لا أتبيَّن الكتابَ وسط هذه العتمة، فإنني أضع يدي على الكرتونة بأكملها، وأبدأ في تمتمة بعض الأدعية والتعاويذ وآيات القرآن التي أتذكرها. ربما أحسُّ بعبثِ ما أفعله، فأرفع يدي للسماء وأبدأ في الدعاء بحُرْقَةٍ وصِدْقٍ. أكرر الأدعية مرات ومرات إلى أن تدبّ في جسدي قوة لم أكن أعرف أنني أمتلكها أصلا. أحمد الله بصيغة مضاعفة:

- اللهم إني أحمدك وأسبحك وأشكرك وأمجدك وأولِّهك إلها واحدا لا إله إلا أنت بعدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك ومنتهى رحمتك.

أستثمرُ قوتي الجديدة وأنطلقُ نحو الباب الخارجي مباشرة. أُلْقِي بكل ثِقَلِي عليه. أسمع أصوات الانكسارات بالداخل. أُلْقِي بنفسي عليه مرة أخرى. تتزايد الانكسارات. لا أسمح لِوَهَنٍ أن يتسرَّب إلى نفسي. أُلقي وأُلقي إلى أن ينكسر الباب ويسقط على الأرض في ضجة هوجاء.

يَفْزَعُ بعض السائحين الواقفين أمام الدار. ألقي عليهم السلام بالرغم من أنني متيقن من أنهم لا يفهمون لغتي. ولدهشتي يردّون عليّ السلام. يمسكون في أياديهم مفاتيح مثل المفتاح الذي كان بيدي قبل أن أدخل وكأنه مفتاح النيل. أبتسم عندما يسلطون كاميراتهم عليّ. ثم أجد شارعا واسعا لم أعهده عندما كنت بالخارج من قبل. أصابع أطفال تشير إليّ ويصيحون. يمسكون بأجهزة أشبه بالريموت كنترول ويوجِّهونها نحو شاشات متعددة الأشكال على الحوائط، أو أن الحوائط ذاتها شاشاتٌ، وكأنهم يبحثون عن أية معلومات عنيّ.

- رجل من القرن الحادي والعشرين.

يقولونها وهم يتضاحكون، ثم سرعان ما يعودون إلى أجهزتهم وشاشاتهم. ولكنني أسمع من جديد بعض الأصوات التي كانت عندما دخلت: هتافات:

- لا شرقية ولا غربية.

- هناك الكثير من الخوف، هناك الكثير من الشك. لكننا إذا اخترنا أن يقيدنا الماضي، لن نتحرك أبدا للأمام....

أسبّح الله. تشدني الشاشات الالكترونية المنتشرة في كل مكان والإعلانات المتدفقة عليها:

- افتتاح فرع مكتبة الإسكندرية في الوادي الحادي عشر.
- إنجازات الشباب في الوادي الخامس عشر على الحدود الليبية.
- جائزة إخناتون الكبرى للأديب المصري المولود في عام 2473.
- جائزة زويل العالمية للعالم المصري نجيب العالم.
- مسابقة الشباب تحت سن الثلاثين في النانوتكنولوجي.

- اشتركْ معنا بأسعار رمزية لزيارة المجرّة الخامسة عشر.

أفرك عينيّ. نفس الإعلانات. تطاردني كاميرات التصوير من كل الأيدي والهواتف، فلا أملك إلا أن أجري في اتجاه جانبي علّي أجد حلاقا ومطعما ومحل ملابس وبرنامجَ تحديثٍ.

16 مايو – 5 يونيو 2009

هيرا

مهداة إلى نجاح عبد النور ومسرحيته ميكانو[5]

تنطلق فَزِعَةً. تنظر أمامها إلى البراح الشاسع الممل الذي يحاول أن يسرِّبَ إليها الشكَّ. تبحث عن نقطة ضوء أو علامة على الطريق. تودُّ لو تنظر وراءها وتجد ميكانو نهض منتصرا على ذاته. لكنها تخافهم. تخشى أن تتعثر قدماها فتسقط سقوطا لا سبيل للخروج منه.

تضع فقط صوتَ قلبِها علامةً تهتدي بها وسط ضياع العلامات.

- سأصل بالتأكيد.

عبارة تكررها كي لا تتوه أو تضيع. تسمع من هنا أو هناك أصواتَ ضحكاتٍ ساخرة. لكنها تعرف ما تريد. لا تترك ضحكة تتمكن من قلبها أو تُسْكِنُ صوتَ عقلِها الضاجِّ بالأسئلة.

---

[5] نُشرتْ هذه المسرحية مؤخرا في سلسلة مسرحيات عربية الصادرة عن دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني، وها هو رابط تحميلها: http://www.mediafire.com/?7vfvbxsxe93gb9r

- الضَّجَّةُ بالأسئلة علامةُ تيقُّظٍ.

تؤكد لنفسها. تصر على أن تتمسك بيقظتها. أصوات مَنْ سقطوا تطنُّ في أذنيها. فتبصق على مَن يحاول اللحاق بها أو يلقي بكلمات بربرية في أذنيها.

تتعثر قدماها في جثة أحدهم. تفاجأ بوجود المسامير المفكوكة من ميكانو هنا بالرغم من أنها سقطت هناك عند الجبل البعيد الذي لم تعد له أية علامة. تحسُّ بلهيب النار يحرق قدميها وتشمُّ أذناها أصواتَ أسلاكٍ بدأت في الاحتراق. تتذكر كل مَنْ سقطوا، كل من لم يتمكنوا من أن يُخرجوا الحياة المحبوسة داخلهم، كل من أغمضوا أعينهم ولم يروا نورًا يكاد ينفلت من قلوبهم ليضيء لهم الطريق. تتذكر كل الكلمات البربرية والانهزامية. صوت ينبع من داخلها يقول لها:

- هيا.

تستجمع كل ما أوتيتْ من قوة وتنهض. تواصل السعي ما بين العلامات المنمحية. الاتجاهات الثلاثة الأخرى جرّبتها. لابد إذن أن تظهر علامة على هذه الطريق.

لا تنصت لصور السقوط التي تدور في رأسها كفيلم سينمائي أخذ عاملُ العرضِ يلهو بتسريعه وكأنه يسخر بالمشاهدين. لا تنصت للصوت الذي يقول لها إن ميكانو لم يَرُدَّ قط على أية كلمةِ غَزَلٍ بدرتْ منها. يفزعها الوهنُ الذي بدأ يدب في أطرافها.

- لابد أنه الوهن الذي يسبق الإشراق.

تقولها لنفسها في يقين وكأن الإشراقَ ذاته هو الذي يكلِّمها. فتلغي كل هذا الوهن بِتَكَّةِ إصرارٍ وتُوَاصِلُ العَدْوَ. تنطلق عابرة المسافات. وعندما يبلغ الجهدُ مداه، تشتمّ آثارَ نورٍ يتسرَّبُ إلى طريقها. تعدو أكثر. تجد النور خارجا منها ينير لها الطريق لتبصر كل العلامات.

1 مايو 2008

كيرياليسون

الرَّجُلُ رِجْلُه انقطعتْ. يا مايكل. يا ليتني أحضرتُ ابنتي معي. كنا سنموت سويا. من سيرعاها في هذا الجحيم؟ أين صوتك يا بني؟ فقط صوت انفجار. كنيسة تنهار. لم تلحق بالفرح يا بني! يا يسوع. ولماذا الجنود إذا كانت ستنهار؟ وربما هم أنفسهم. وهل جف دم العام الماضي حتى تمتلئ الأعياد بالدماء؟ يمضي عام جديد. يعرفون التهديدات بالتأكيد. أين يدي؟ لا أرى شيئا. أين السيول التي تركناها بالخارج؟ أهي محرقة؟ ومن يستطيع أن يعرف السبب؟ فقط صوت انفجار وأظلمت الدنيا واشتعل الدمار. يا إلهي!

أين أنت يا مايكل؟ يا حبيبتي يا بنتي! سنوات أخرى حتى يعرفوا مَن تلاعبَ بدمِنا. دمنا مُراق على الأرصفة. دمنا مُراق في الكنائس. وفي الجوامع أيضا. دمنا قربان للرب. ويقولون عيد! يا رب لا تهنئه بعيد أبدا! يا رب بنتي معك. يا رب أرسلْ لي مايكل. ماذا سأفعل بدون أعضائي؟ خذني كلِّي. كيف سأواجه عيونا لا أعرف مَن فيها قاتلي؟

أسبحُ في شوارع الدم. أعبر الشط إلى بيتي. أين رائحتي؟ أين عنواني؟ كأنني لستُ بهذا المكان، كأن نَفَسِي لم يتركْ بصمةً. طائرة. دمعة هاربة. حنين مزدوج، لأرض فاتت تملؤها الدماء، دم إخواتنا في بارليف ميروحش هدر في جنيف. بالروح بالدم نفديك يا صليب. حنين لأرض ستجيء تغمرها المياه. وما بين الطوفان والطوفان شرطيٌّ جبان. يحيا الهلال مع الصليب! شرطيٌّ غادر. يموت الصليب مع الهلال!

كيرياليسون[6] كيرياليسون! هيا اصعدي، لكِ السماوات ولكِ الأرض. ازرفي دمعك فيضانا. سيكتسح كل الحزن. سيجرف كل التماثيل المنصوبة لتوِّها في الميادين.

حبيبتي لم تودعك ذاتي. فَرَّقَتْنَا المتفجراتُ والجنودُ الواقفون بالباب وورق الجرائد بلا معنى. فَرَّقَتْنَا الأصواتُ الرخوة. فَرَّقَتْنَا الكراسي التي لا تنهش إلا من يقترب منها. فَرَّقَتْنَا أرصفةٌ تغيَّرتْ ألوانُها. فَرَّقَنَا لسانٌ شَطَرَهُ شُرْطِيٌّ على

[6] يا رب ارحمْ بالقبطية.

برج بابل، فانقسم لسانين لا يفهمان بعضهما. تفر دمعة مني فأتركها، دمعة ربما تحرق البلادة والفُرقة والشرطي العجوز.

2 يناير 2011

تخبُّط

سألني سؤالا رأيته غامضا ومليئا بالأسئلة في الوقت ذاته:

- لماذا كل هذا؟

ثم صمتَ. ترك الدموع تتشاجر في عينيه. لم أجدْ إجابة ولم أستطع أن أستسيغ سببا. لم أستطع أن احتمل صراع الدماء وهي تنداس على الإسفلت رخيصة كتراب وطن.

عندما استدرنا لنبتعد قبل أن نموت من ارتفاع الضغط أو توقُّفِ القلب أو الألمِ الطاغي، استوقَفَنَا شُرْطِيٌّ ليسألنا عن هويتنا وسَبَبِ تواجدِنا في هذا المكان، كأننا لا يحق لنا سوى أن نتفرج على مشاهد الدم في التليفزيون كفيلم لا علاقة لنا به. كنت أود أن أسأله:

- وأين كنتَ قبل ساعة من الآن؟

لكنني خشيتُ أن يحوِّل السؤالَ ذاته إلى تهمة تستوجب الاعتقالَ. نظرتُ إليه باحتداد مُقنَّعٍ عندما سأل مُستفِزًّا:

- وما الذي جمعكما؟

كنتُ أودُّ أن أقول له:

- وهل الديانة سببٌ في الفُرقة؟

أو أقول له:

- وهل أنت تسعد بفُرقتنا؟

لكنني لم أضمن ذكاءه، وخشيتُ أن يتعامل كالمعتاد ليقودنا إلى حيث لا ندري، فنخسر ما قد يُمْكِنُنَا أن نشارك به في تخفيف المأساة. قلتُ بقدر ما استطعت من افتعال المزاح:

- يا باشا. اليوم عيد وجئت لأحتفل مع صديقي.

ولم تسمح المرارةُ لصديقي أن يقول شيئا. قبل أن يتطور الوضع إلى أسئلة أخرى ومحاولة منا لتجنُّب العبث، صدر صوت من جهاز اللاسلكي الذي بيد الشرطي يأمره بالذهاب، فانصرف.

أَخَذْنَا نجوب الشوارع بحثا عن نسمة هواء قديمة لم تلوِّثها الحرائق، لم تبدِّدها الانفجارات ولا الأصواتُ المتخبِّطة.

3 يناير 2011

بذرة ثورة

- أين بنتي؟

- لا أعرف.

- ذهبتُ إلى كل المستشفيات ولم أجدها. هذه آخر مستشفى.

- لستَ أول من يسأل عن بنته ولم يجدها.

- بنتي يا ناس!

- العشراتُ غَيْركَ جاءوا يسألون عن بناتهم اللاتي جرف السيل أتوبيس رحلتهن.

- وماذا تفعل أنت إن كنتَ لا تعرف أين هن؟

- أتتبجَّح أيضا؟ خذ...

- أتضربني أنا يا ابن أبيك وأمك وتحتمي برتْبتكَ؟

- أضربكَ وأضرب بنتكَ حتى لو جاءت جثةً.

- سأعرف كيف آخذ حقي منك.

- ها هو المحافظ جاء يتفقَّد المصابين. اذهبْ واشتكِ له كما يحلو لك.

- يا سيادة المحافظ، بنتي ضاعت. كلما أذهب لمستشفى يقولون لي: "ابحثْ في غيرها". أربع وعشرون ساعة لم أنمْ ولم أكفّ عن البحث.

- وماذا أفعل لك؟

- إن كنتَ أنت المحافظ بجلالة قدرك لا تعرف ماذا تفعل، من يعرف إذن؟

- وهل المحافظ فارغ للمرضى. حذَّركم خبراء الأرصاد وأنتم أغرقتم أنفسكم.

- يا رب بنتي، بنتي يا رب.

11 يناير 2011

وقودُ محرقةٍ

بعدما لم تجد بنتَها الغارقةَ في أي من مستشفيات المُحَافَظَةِ، وبعدما تأكدتْ أنه لم يَعُدْ من مُشرفي الرحلة سوى المديرة وأقاربها الذي قفزوا من الأتوبيس بمجرد انقلابه وغرقه وسط السيول، وعادوا إلى منازلهم، وغرق المدرسون في محاولاتهم لإنقاذ مَنْ يمكن إنقاذه، سارعتْ إلى مكان الحادث في المحافظة الأخرى على أمل أن ترى أو تسمع شيئا عن بنتها.

وجدتْ بعض الوجوه القانطة متناثرة هنا وهناك، تطيل النظر، وجوه تنتظر أن تحنَّ الرمال وتبتلع مترا من المياه حتى يستطيعوا الخوض والبحث بمفردهم بعد أن يئسوا من رجال الإنقاذ. توجهتْ من سيارة الأجرة مباشرة إلى شُرْطِيٍّ يدخن سيجارة ويستمع إلى جهاز راديو في يديه كأنه خارج المشهد تماما.

- أين الجثث التي استخرجوها؟

- الجثث كلها جرفها السيل، لكن هناك جثتين في كيسين أسودين على الأرض بجانب كمين الشرطة هناك.

سبقتها دقاتُ قلبها. زغردتْ بهستيرية عندما شمَّتْ رائحةً مألوفةً. تتبعتْ الرائحةَ. قبَّلت الكيس بجنون قبل أن تفتحه وكأنها على يقين تام بأن بنتها بداخله. فتحته. قبَّلتْ شعرها. سحبت الرأس نحو صدرها:

- سرقوا ذهبك. فداكِ يا حبيبتي. هيا افتحي عينيكِ. لا تمثِّلي النومَ. لن أعاتبك. حمدا لله على سلامتكِ قبل كل شيء. هيا استيقظي.

نظرتْ إلى كمين الشرطة وأخذت تناوب بين العويل والزغاريد كوقودِ محرقةٍ لثورةٍ قادمةٍ.

11 يناير 2011

التَّطَهُّرُ بالرَّجْمِ

حتى الشوق هاجر عن قلبي، وتركني وحيدا أعرجَ النبض، لا أستطيع أن أتراقص طربا لنور أبتغيه يظهر في مخيّلتي، أو أتذكَّر مشهدا حميما وارثْه السنواتُ. أنا الآن بلا حسٍّ. لا أفرح بشيء، ولا أحزن لشيء. وعندما أنظر حولي في كل هذا السراب، لا أرى إلا أياما تمضي في مَلَلٍ، وأياما تجيء ببلاهة، كَطَلَلٍ قديم لا يترك لصوصُ الذاكرة شيئا يدلُّك عليه، أو يبعث في قلبك إحساسا به.

أصحو من نومي، أجد صورة نفس الشخص القديم تطالبني بأن أرشِّحه رئيسا على هذا الخراب وأنا لم أرَه، وإن كنت سمعتُ صوته يوما وهو يحثُّ اللصوص على نهبِ كل ما تراكم في ذاكرتي ويدفنوه مع النفايات الذرية الزائرة في قاع النهر. وعندما شربتُ من الترعة التي كانت تصل إلى هنا، لم أعد أتذكَّر إلا ما تراه عيني الآن: صحراء مترامية كأنها الزمان اللانهائي وصوتَ نحيبِ ريحٍ خافتا لا يلفت انتباها ولا يجذب أحدا ليستطلع الفجيعة.

ما هذا الذي بدأ يتسرَّب إلى رأسي؟ أحس بخدر خفيف كأنني أصحو من نوم لم يكتمل على صوت منبِّهٍ يلفت انتباهي إلى شيء ما. أحسُّ برغبة مفاجئة في التعرِّي. أخلع ما تبقَّى عليَّ من أَسْمَالٍ وأستحلب قطرات ماء من هذا النَّبع الهيِّن وسط الصخور.

أرفع يدي وأضع كفِّي متعامدا على جبيني حتى أستطلع المكان، فربما رأيتُ أحدا قادما. ستكون مفاجأة رائعة إن ظَهَر أحدٌ في هذا الامتداد الصحراوي الشاسع. لا أحد. من أين أتى هذا الإحساس إذن؟ أنا متأكد تماما من قوَّتِه التي تتزايد داخلي. أنظرُ إلى نفس الصورة القديمة التي لا أرى من يجدِّد ألوانها كل حينٍ. أبصق عليها بكل ما أستطيع أن أجمِّعه من لعاب أعرف أنني لن أتمكَّن من تجميعه بسهولة إلا بمزيد من التمرين.

تبدأ الصور في التوافد على ذاكرتي وكأنني وُلِدْتُ الآن فقط. لا أعرف كم من السنوات مرَّت وأنا هنا بلا ذاكرة، لكن تصحُّرَ كل شيء حولي يقول بأنها فترة طويلة لابد. كان كل

شيء أخضر اللون، وإن كانت خضرته داكنة بعض الشيء في بعض المواضع. وكان النهر يشق هذه الصحراء.

ها أنا أتذكَّر. لم تكن صحراء أبدا. كان كل أنواع البشر يسكنون هنا. وكانت الأصوات كثيرة ومتآلفة برغم اختلافها. وكنت أكتب العرائض والشكاوي للمظلومين وذوي الحاجة.

من الذي مزَّق أوراقي؟ لا أتذكَّر على وجه اليقين. لكنني أذكر أن أناسا يرتدون نفس الزي انهالوا عليَّ فجأة كقطَّاع الطرق، وسرعان ما تغيَّر المنظر بأكمله، وتحوَّلت الخضرة إلى نقمة. بدأت الأشجار تأكل بعضها البعض وتحوَّلت مياه النهر بنفاياتها الذرية وموادها المسرطنة إلى ديدان بدأت تكبر وتكبر إلى أن صارت وحوشا كاسرة تأكل البشر والأشجار والجيف.

أذكر أنني هربت إلى الجبل الذي كان قبل هذا المنظر أشجارا سامقة، لكن الجذور والأغصان تحوَّلت إلى صخور نهمة سرعان ما كبرت وعلت وصارت جبالا متنافرة. أذكر أنني هربتُ وأذكر أيضا أنني لُمْتُ نفسي. كنتُ أرى المَنْيَ

النازف في ليالي الرغبة الوحيدة يتحوَّل إلى كائنات لا ملامح لها، كائنات تظل تؤرقني طوال النهار ولا تنحسر إلا عندما يهبط الليل وتشتد الوحشة وأظل أبكي الحنين. لكنني لم أكن أعرف لأي شيء أحنُّ.

اختلط الحنين عندي بالرغبة في الخروج من هذه الوحشة. لكن الأصباغ الجديدة المسكوبة على الصورة المعلقة على الجبل والتي تدعو الخواء لأن ينتخبها كانت تلتصق بفم الحنين فينزف دما بداخله وداخلي. وكان حنيني أشبه بالسراب، فعندما كان يشتدُّ كنتُ أرى أشجارا هنا وهناك في الصحراء حولي، وكنت أرى وجوها ضبابية تبزغ فجأة أمام عينيَّ، لكنها كانت تختفي أيضا لتُرجعَني إلى الصمتِ المطبق وعواءِ الرياح.

ريح تعوي في أذني الآن. لا أسمع أي صوت في هذه الصحراء. فقط صوتٌ في أذني كأنه يكشط ما تراكم عليها. تهتز رأسي فجأة وينتفض جسدي. أكان عليَّ أن أنتظر كل هذه السنوات في تأمُّلٍ لا أذكر له موضوعا محددا حتى تعود

لي ذاكرتي وتطنَّ أذني بأصوات تدب على مهل في كياني كله؟ لكنني فرحان جدا. لا أدرى لماذا. كأن تشعر بمصدر سعادة لا تدركه، لكنه موجود، يمارس مفعوله معك أو عليك، يقول لك:

- أنا هنا، أنت أيضا ستكون هنا ما دمتُ معك. لا تخفْ. فقط واصلْ الإنصاتَ، استشعر الدفءَ.

أهلا بك وبي. أشعر فعلا بك وبحضورك الذي يتدرَّجُ في رأسي. نعم. نعم. لا بأس الآن. فلنفترض أن كل تلك السنوات التي لا أدري عددها ذهبت هباء. لا يهم. المهم أنني بدأت أشعر بي. بدأتْ ذاكرتي تحضر تدريجيا. لا تهم أوراقي الممزقة الآن. أدرك في هذا الوقت أنني باستطاعتي أن أكتب آلاف الأوراق، وأن أحيا ما يعادل ملايين الأوراق. لا بأس إذن. مرحبا بنا جميعا.

ما هذا الطوب الذي يتسابق إلى يدي في هذه الصحراء؟ إنه أمر غريب حقا. وما الغرابة في ذلك؟ إن كنتُ بدأت أتذكَّر كل شيء، فلا غرابة إذن أن أجد طوبا وسط هذه

الصخور. تمهَّلْ يا رجل! عد إلى رشدك! اقتنصِ الدهشة وتمتَّعْ بها!

أذكرُ أن اللصوص الذين كانوا يعلِّقون هذه الصورة في كل مكان كانوا ينهبون كل شيء بينما كان الناس ينبهرون بالأضواء الفسفورية التي تحيط بالصورة. لكنني اعتبرتُ ذلك شيئا عاديا. ومن ساعتها صارتْ كل الأشياء عادية. ولم استغربْ ساعةَ سطا نفس اللصوص على نفس الأضواء لاحقا. ومنذ ذلك الوقت لم أستمتع بشيء قط. لابد أن الاعتياد آفة الذاكرة والقلب والعقل. ربما كان عواءُ الرياح صراخا في وجهي. ربما كنتُ أعتبره عواء عاديا ولم ألتفت لمعناه. نعم سأقتنص الدهشة في كل شيء. لن أنظر إلى أي جديد على أنه عادي مرة أخرى. تعالَ أيها الطوب! أنا مشتاق إليك. ارتمِ في حضن يدي كما تشاء! أنت دهشتي وسأكون دهشتك بإذن الله.

أهلا. أشعر بالحضور الطاغي. تزداد قشعريرة جسدي. أنتفض. أهتزُّ. لا أحتمل كل هذا. أشعر الآن بأنني طفل

صغير في حضن لا أستطيع أن أبلغ مداه. أنا الآن أصغر منه بكثير وأكبر من أي شيء في هذا الامتداد. أهلا بكم أنتم أيضا. يندفع الطوب إلى أياديكم مثلي! جميل. جميل. منظر أكثر من رائع حقا. أبتسمُ لرغبة تنبت في صحراء قلبي. هيلا هوب. توكَّلنا على الله. أمسكُ الطوبَ بقوة. تتجه يدي إلى ذلك الوجه القديم. ما أبشعه! كيف كان الناس ينظرون مبهورين إليه ويتركون اللصوص يسرقون كل شيء؟ خذْ هذه! الرجمة تُنْبِتُ رغبةً أكبر والرغبةُ تُوقِدُ الرَّجمَ. يمتلئ قلبي بالرغبات. لكل فعل رد فعل، ما أجملها من مقولة! يملأ الرجم قلبي وذاكرتي بأشياء تدهشني، لا أستطيع أن أصفها الآن. ربما بعد أن أتأملها لاحقا أستطيع أن أتوصل إلى كنهها أو ملامحها.

تتفتَّحُ الخضرةُ حولي. تندهش ذاكرتي من حضورها أمام نفسها بكامل تألقها وعنفوانها. تتلوَّن الصور القديمة وتبرز صور جديدة كأنها أخذت من كل نوع في ذاكرتي زوجين. ليست الخضرة وحدها هي التي تعود، فالنهر رجع

أيضا، لكنه نهر كالبحر، جميل أنني أحس به والأجمل أنه يمتد أمامي كالحياة، هكذا الدهشة، هكذا السفن، سفينة ليست حتى كمثل السفن التي في الأحلام، ما هذا؟ أأنا أرقص الآن؟ أراقص نفسي وأراقص الوجوه التي تستوى على وجه الماء كالسفن! شيء مدهش أن يذهب العَرَجُ هكذا! هيا يا رفاقي! السفينة تنادينا. توكَّلنا على الله.

27-29 مارس 2010

على بالي

يا له من يوم ملعون! أبصقُ عليه وأعلِّقه من طرفيه على المسمارين الكبيرين اللذين أثبِّتُهما على الباب، رافعا يديه. أخلع بجانبه قدميَّ المتورمتين وسحنتي العابسة التي لم تكن هكذا في الصباح، ولكنها عبست تدريجيا طوال ذلك اليوم الذي يبدو بعيدا لدرجة أنه يبتسم في وجهي ويتحدث عني كأنه يتحدث عن شخص غيري من بلد ليست بلدي. أرميهما تحت الجسد المعلَّق على الحائط، ثم أعتدل وأرفع رأسي وأدير المفتاح في الباب بهدوء.

تتحسس عيناي وجهي في المرآة. أشعر بأنني في حاجة إلى حمَّامٍ صديقٍ، فأخلع ملابسي في هدوء وتمعُّنٍ كأنني أمارس طقسا يوميا بكل تجلياته وبكل حضوره وبكل ما يوحي به من غياب.

أترك لمساتِ الماء الحانيةَ والدافئةَ والساخنةَ تزيل ما تجهَّم على كياني من تراب وشمس، ومن عَرَقِ كل الذين قابلتهم في الشارع اليوم وفي الأتوبيس وفي المترو، وفي

محطات الانتظار التي لا تنتهي، وكلٌّ يأخذ منك ثمن انتظارك.

أمسحُ بالمنشفة ذاكرة ذلك اليوم الطويل الذي يتكرَّر أبد الآبدين كأنني كُرَةٌ لاهيةٌ يلهو بها الباسم الأكبر، أو أنني تمثال يصحو كل دقيقة لكي يُسقطه ثم يعود إلى لهوه المتوطِّن كفيروس الكبد الوبائي، وإلى منتجعاته التي لا تنتهي، ودورانه اللانهائي على المستشفيات الألمانية علَّها تطيل عمره يوما آخر فيسقطني فيه من جديد آلاف المرات.

أتأمل وجهي الحليق وملابسي في مرآه الحمَّام التي أمسحها بمنديل ورقي كي أُبعدَ عنها أثر غبار التمثال الساقط ليل نهار، ثم أشطب بنفس المنديل الورقي أثر صورتي من المرآة وأخرج تاركا الشبشب عند باب الحمَّام بعد أن أمسح من عليه بصمات قدميَّ بمنديل ورقي آخر وورقةِ جريدةٍ بها صورة باسمة لذلك الذي يلهو بي.

أضع قطعة فحم على نار البوتاجاز وقليلا من الماء في البرَّاد على عين أخرى، ثم أسخِّن ما تبقَّى من فول الصباح

على العين الثالثة. أجد أن الرغيف لا يجد له مكانا، فأزيح البرَّاد قليلا من على العين الثانية، وأسخِّن الرغيف على مهلٍ حتى تنبعث الحرارة فيه ويعود للحياة، فيتلذّذ به فمي.

لابد أن أضيف لمسة لافتة على هذا الطبق اليومي. شريحتان من المخلَّل تكفيان. تتأفف اللقمة عندما أضعها على سلَّم جوفي، وكأنها ملَّتني أبد الآبدين، أو أن الفول يريد أن يخونني من كثرة الاعتياد، فأسكب عليها وعليه رشفة شاي، تقليدا لأسلوب زوجة كنت قد تزوجتها في رأسي ذات مساء وهي تفترش الأرض وتبدأ في الأكل، وعندما ترفض اللقمةُ أن تسلك سكَّة جوفها كأنها غير راضية تزدرد الشاي ليحلو الأكل أو ينبلع.

أملا زجاجة الشيشة من مائها المخصوص في ثلاجة تخطر على بالي، وأضبط مستوى الماء في الزجاجة، ثم أجلس على الكرسي في غرفتي الوحيدة واضعا قطعة الفحم أمامي كأنها مثير أو منبِّه لوجود الحرارة والدفء في هذا العالم. أضع طبقة من المعسَّل في الحجر، ثم أسنُّ أظافري

وأنبش في جسد تلك القطعة اليتيمة لأفتِّتها قطعا لا تكاد تُرى، وأنثرها هنا وهناك على سطح طبقة المعسَّل. أخشى أن يكتشفها مستثمر أو رجل أعمال فيجيء ليختطفها، فأخفيها بطبقة مُعَسَّلٍ أخرى وأضع قطعا صغيرة من الفحم فوق كل هذه المأدبة.

أتنفس نفسا عميقا وأقبِّل المَبْسَمَ قُبلة ترحيبٍ وألصقه بفمي وأستدرجه لمساحتي الحميمة إلى أن أتمكَّن منه. تبدأ خيوط رأسي في الانفكاك عندما يتسلل الدخان كسحابة صيف ممطرة إلى سماء كادت تحترق، فأنهض لأمطر سخطي وغضبي. أمسك بالعصا وأصلب كل من علَّقتُهم على بابي دون أن أتهاون مع أحد منهم. ألسع كلا منهم بضربة أو ضربتين ثم أعود لأسحب الدخان وأخرج لأفرِّغه على أجسادهم.

عندما تتورَّم أجسادهم وتتعب يدي، أصرخ في وجوههم مطمْئِنًا:

- سأعفو عنكم طوال الليل.

ثم أدخل إلى غرفتي. أتشمَّم ما تبقَّى من دخان وأفتح الشبَّاك لتطيِّر الريحُ آثارَ دخانٍ كان حميما. أفتح ديوانا شعريا مفهوما وأقرأ قصيدة أو قصيدتين، وإذا أعجبني سطر أكرره إلى أن أبدأ في التغنِّي به بالرغم من أنه يخلو من الموسيقى التي يفرضها الباسمون كصورته وكصورة رجاله الذين يبتسمون على الدوام وهم يتكلمون عن أرضي كأنهم يتحدثون عن أرض أخرى. أُعجب به لخلوه من هذه الموسيقى. تنضبط الكلمات في رأسي بلا وزن، فتعلو رأسي كثيرا. ساعتها أرتدي ملابس الخروج.

أنظر متجهِّما إلى الواقفين على بابي، ثم أنزل السلم مرددا بيت الشعر الذي أعجبني، وأجدني أؤلف قصيدة تعلو في رأسي مع كل درجة سلم أهبطها في طريقي إلى الشارع. وعندما يراني الشارع، أرفع رأسي وأعدل ياقتي وأطلق النار على أول شخص باسم منهم يخطر على بالي.

29 مارس 2010

خِصْيَان

- كان عملا عظيما. ما أحلاها من أيام قضيتُها في القصر. لا أدري لماذا كان هؤلاء الأولاد يصرخون عندما كانوا يساقون إليّ. رحم الله هذه الأيام. رحم الله الخَصْيَ.

عندما أفاق من أفكاره، حمد الله على أن الرياح لم تعصف به كما عصفت بمعظم القصور، وحمده أكثر على ما جمعه من ذهب وأموال وأعضاء محنَّطَة.

وقف بسيارته عند إحدى الحارات، ونزل منها متبختر، كأن أفكارا حزينة لم تعقب أفكاره التي تبخَّرت كما القصور.

تسابقت إليه بعض الوجوه التي تحاول أن ترضيه بأي طريقة كانت. لكنه انتقى وجها لم يتعامل معه من قبل في هذه الحارَةِ، وإن كان يذكِّره بوجوه رآها في حارات أخر.

أشار إليه قائلا له:

- ما الجديد الذي ستريني إياه؟

سار أمامه هذا الوجه فَرِحًا كأنه يدلُّه على المكان الذي سيرسو عليه:

- سأُرِيكَ الآن ختانَ رجل بالغ.
- لا. هذا رأيتُه من قبل.
- سأريكَ نزعَ طبقة من الجلد دون أن تنكسر البيضتان.

راقتْ له الفكرةُ. فقد كان كل عمله في سابق أحواله أن ينزع البيضتين. لكنه الآن سيرى كيف يُنزَع الجلدُ دون أن تُمَسَّ البيضتان.

أشار الوجه الجديدُ إلى أحد الشباب المتسكِّعين في الحارة قائلا:

- يا ولد يا خَلف.
- نعم يا مسرور.
- مسرور هكذا بدون عمِّي!!
- نعم يا عم مسرور.

- تعالَ لتقضي معي حاجة الباشا.

- ثوانٍ يا عم مسرور.

قالها خلف وهو يسرع إلى عِشَّتِه، بينما أجلس مسرورُ الرجلَ على أحد الكراسي أمام محل من المحلات. سحب "خلفُ" سيجارةً من صندوق في الغرفة، ثم وقف أمام المنزل يدخن بشراهة وتأنٍ. سعل بشده عندما حبس الدخان في صدره وفمه طويلا. استنشق بعمق، ثم أطفأ السيجارة التي لم يكملها ووضعها في جيبه. أخذ يجري في الحارة جيئة وذهابا إلى أن أحس بقوة الهواء حول رأسه وبدأ يرى في الحارة حوله ما يضحكه، ثم نادى خطيبته غير الرسمية واختفيا خلف إحدى العِشَشِ.

خرج "خلف" رافعا رأسه لثوانٍ، وسرعان ما ضبطها، ثم أنزلها قليلا، وسار بخطوات حاول أن يضبطها، ولكنها لم تنضبط. وعاد إلى مسرور والرجل الذي أوشك انتظاره على التضايق.

- ثوانٍ أُشْعِلُ السيجارة.

- على مهلك. المهم صحتك ودماغك.

أشعل باقي السيجارة وهبطت ملابسه إلى الأرض. مد بصره في المدى كأنه لا يرى شيئا أمامه، قائلا بصوت استغربه حتى مسرور الذي يعرفه منذ أن وُلِدَ:

- ابدأ يا عم مسرور.

نظر إليه الرجل بابتسامة لا تخلو من مرارة، متذكِّرا سجائره التي كانت تشتعل طوال الليل في القصر وفرحه نهارا بالانهماك في القيام بمهمته بهمَّةٍ وسرورٍ، فازدادت ابتسامتُه مرارةً وأنزل نظرته لتتابع المشهد بتأنٍّ وتركيزٍ.

لكن "خلف" قاطع لحظات الصمت قائلا:

- أعطني خمسَ دقائق قبل أن تبدأ.

وأخذ ينظر لأسفل ذلك النافر الصلب كأنه يودعه. وعندما أشار بيده إلى مسرور دون أن يتكلم، اقترح مسرور على الرجل:

- ما رأيك يا باشا في أن ننزع الشعر شعرة شعرة أولا؟

- سيكون أجمل.

لكن خلف تدخَّل في الحوار في آخر لحظة قبل أن يبدأ مسرور في نزع الشعر وقال:

- لكن ذلك لا يدخل ضمن الحساب.

فردَّتْ عليه ابتسامةُ الرَّجُلِ التي بدأت مرارتُها في الخفوت:

- لا يهمّكْ شيءٌ.

وعندما وجد خلف أن هذا الرجل لا يبالي بالحساب، أضاف:

- ما رأيك لو قَصَفَ مسرور البثورَ التي في منابت هذا الشعر؟

صفَّقَ الرجل ليحييه على فكرته الرائعة، ثم نظر إليه نظرة طويلة صامتة، واقترح عليه اقتراحا إضافيا:

- وما رأيك لو شويتُ بيضتيك بعد نزع الجلد.

سرح بصر خلف، ثم زرَّ عينيه فتوقَّد فيهما بريقٌ:

- سيكون حسابنا سبعة أضعاف المبلغ المعتاد.

زرَّ الرجل أيضا عينيه، وتوقدت داخلهما صورة شيِّ البيضتين على مهل، فهو لم يفكر في ذلك قط بالرغم من أنه قضى عشرين عاما كان بإمكانه أن يفعل ذلك كل يوم.

- توكَّلنا على الله.

3 ديسمبر 2009

عن المؤلف

ولد جمال محمد عبد الرؤوف محمد الجزيري في 2 أغسطس 1973 بجهينة، محافظة سوهاج، مصر. كاتب قصة وشاعر وروائي ومترجم وكاتب مسرح وناقد ودكتور جامعي. بدأ مشواره الأدبي في عام 1991. تخرج في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بسوهاج 1995. حصل على الماجستير من قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة 1998عن رسالة بعنوان "تحولات المنظور في شعر روى فولر1936 – 1961"، ثم على الدكتوراه من قسم اللغة الإنجليزية بآداب عين شمس عام 2002 عن رسالة بعنوان "جوانب السرد في شعر روجر ماكجوف 1967 – 1987". يعمل منذ عام 1999 بقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية بالسويس، جامعة السويس بمصر وانتقل بعدها ليعمل بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في نفس الجامعة، ويعمل حاليا بقسم اللغات والترجمة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة بالمدينة المنورة. وقام في يناير 2014 بتأسيس مجموعة سنا الومضة على الفيسبوك بالاشتراك مع الأستاذ عصام الشريف (مصر) والأستاذ عباس طمبل (السودان)، وهي مجموعة تعني بشئون القصة الومضة نظريا وتطبيقيا ونقدا وإبداعا. كما قام في شهر مايو 2014 بتأسيس دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني.

الاسم بالكامل: جمال محمد عبد الرؤوف محمد

اسم الشهرة والنشر: جمال الجزيري

الجنسية: مصري

المهنة: دكتور جامعي، تخصص الأدب الإنجليزي

البريد الإلكتروني: elgezeery@gmail.com

جـوائـز

* المركز الأول في القصة القصيرة من جامعة جنوب الوادي 1995
* المركز الثالث في القصة القصيرة، المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة 1996 – 1997 عن مجموعة بعنوان **أساطير**.

فهرس

العنوان	ص
إشارة	3
جهاز مسح الرأس	4
احتمالات الملك والكتابة	9
سأركب دماغي	18
تجديد الثقة	27
مفتاح	31
هيرا	52
كيرياليسون	55
تخبُّط	58
بذرة ثورة	61
وقودُ محرقةٍ	63
التَّطَهُّرُ بالرَّجْمِ	65
على بالي	73
خِصْيَان	78
عن المؤلف	84
صدر في هذه السلسلة	115